في حالات ملوك الإسلام في هذه الأيام

اعلمْ، رحمك الله، أن أكثر طوائف الملوك وأولي الأمر والإمـــرة، الذين يُعَدّون مِن كبراء هذه الملّة، قد مالوا إلى زينة الدنيا بكل الميل والهمّة، واستأنسوا بأنواع النعم واللُّهْنيّة، وما بقي لهم شغل من غير الخمر والزمر والشهوات النفسانية. يبذلون خزائن لاستيفاء اللذّات الفانية، ويشربون الصهباء جهرةً على شاطئ الأنهار المصرّدة والميـــاه الجارية، والأشجار الباسقة، والأثمار اليانعـــة، والأزهـــار المنـــوّرة، جالسين على الأنماط المبسوطة، ولا يعلمون ما جرى على الرعيّـــة والملّة. ليس لهم معرفةٌ بالقانون السياسي وتدبيرِ مصالح الناس، ومـــا أُعطيَ لهم حظ من ضبط الأمور والعقل والقياس. والذين يُتخيَّرون لتأديبهم في عهد الصبا، فهم يرغّبونهم في الخمر والزمر وعلى منادمةٍ على الرُبى، سيّما في أوقات المطر وعند هزيز نسيم الصبا. كـــذلك يقرُبون حرماتِ الله ولا يجتنبون، ولا يؤدّون فـــرائض الولايـــة ولا يتّقون، ولذلك يرون هزيمة على هزيمة، وتراهم كل يوم في تنـــزُّل ومنقصة؛ فإنهم أسخطوا ربّ السماء، وفُوِّضَ إليهم خدمة فما أدّوها

حق الأداء. أتزعمون أنهم خلفاء الإسلام؟ كلا، بل هم أخلدوا إلى الأرض وأنَّى لهم حظّ من التقوى التام؟ ولذلك ينهزمون مِن كل مَن نهض للمخالفة، ويولّون الدبر مع كثرة الجند والدولة والشوكة، وما هذا إلا أثرُ السخط الذي نزل عليهم من السماء، بما آثروا شهواتِ النفس على حضرة الكبرياء، وبما قدّموا على الله مصالح الدنيا الدنيّة، وكانوا عظيم النهمة في لذّاتها وملاهيها الفانية، ومع ذلك كانوا أُسارى في ذميمة النخوة والعُجْب والرياء، الكسالى في الدين والفاتكين في سبل الأهواء. فكيف يُعطى لسَقَطٍ جُلَّى ومكرمة؟ وكيف يوهب لفُضلةٍ فضيلةً ومرتبة؟ فإنهم بسَأوا بالشهوات، ونسوا رعاياهم ودينهم وما أدّوا حقّ التكفّل والمراعاة. يحسبون بيت المال كطارفٍ أو تالدٍ ورثوه من الآباء، ولا ينفقون الأموال على مصارفها كما هو شرط الاتّقاء، ويظنّون كأنهم لا يُسألون، وإلى الله لا يُرجعون. فيذهب وقتُ دولتهم كأضغاث الأحلام، والفيءِ المنتسخ من الظلام. ولو اطّلعتَ على أفعالهم لاقشعرّت منك الجلدة، واستولت عليك الحيرة. ففكِّروا.. أهؤلاء يشيّدون الدين ويقومون له كالناصرين؟ أهؤلاء يهدون الضالّين، ويعالجون العمين؟ كلا، بل لهم أغراض دون ذلك، فهم يعملون بها مصبحين وممسين. ما لهم ولأحكام الشريعة، بل يريدون أن يخرجوا مِن رِبْقتها ويعيشوا

بالحريّة. وأين لهم كالخلفاء الصادقين قوة العزيمة، وكالأتقياء الصالحين قلب متقلّب مع الحق والمعدلة؟ بل اليوم سُرُرُ الخلافة خالية من هذه الصفات، وأُلقيَ عليها أجساد لا أرواح فيها بل هي أردأُ من الأموات. وإنّ وجودهم أعظم المصائب على الإسلام، وإن أيامهم للدين أنحسُ الأيام. يأكلون ويتمتّعون، ولا ينظرون إلى المفاسد ولا يحزنون. ولا يرون الملّة كيف ركدت ريحها، وخبتْ مصابيحها، وكُذّب رسولها، وغُلّط صحيحها، بل تجد أكثرَهم مصرّين على المَنهيّات، المجترئين على سَوْق الشهوات إلى سُوق المحرّمات، المسارعين بنقل الخطوات إلى خطط الخطيّات، المتمايلين على الغِيد والأغاريد وأنواع الجهلات، المصبحين في خُضُلّة من العيش والممسين في أنواع اللذّات. فكيف يُؤيَّدون من الحضرة، مع هذه الأعمال الشنيعة والمعصية؟ بل مِن أول أسباب غضب الله على المسلمين وجودُ هذه السلاطين الغافلين المترفين، الذين أخلدوا إلى الأرض كالخرّاطين، وما بذلوا لعباد الله جُهْدَ المستطيع، وصاروا كظالعٍ وما عَدَوا كالطِرْف الضليع، ولأجل ذلك ما بقي معهم نصرةُ السماء، ولا رعبٌ في عيون الكَفَرة كما هو من خواص الملوك الأتقياء، بل هم يفرّون من الكَفَرة، كالحُمُر من القَسْورة، وكفى لألفٍ منهم اثنان في موطن الملحمة. فما سببُ هذا الجبن

وهذا الإدبار، إلا عيشة التنعّم والإتراف كالفُجّار. وكيف يُعْضَدون بالنصرة والإعانة، مع هذه الغواية والخيانة؟ فإن الله لا يبدِّل سنّته المستمرّة. ومِن سنّته أنه يؤيّد الكَفَرةَ ولا يؤيّد الفَجَرة، ولذلك ترى ملوكَ النصارى يؤيَّدون ويُنصَرون، ويأخذون ثغورهم ويتملّكون، ومِن كل حدَبٍ ينسلون. وما نصَرهم الله لرحمته عليهم، بل نصرهم لغضبه على المسلمين لو كانوا يعلمون. وكيف أُظْهِرَ عليهم أعداؤُهم إنْ كانوا يتّقون؟ بل لما تركوا الدعاء والتعبّد، ما عَبَأَ بهم ربهم فهم بما كسبوا يُعذَّبون. وإنّ شرّ الدوابّ قوم فسقوا بعد إيمانهم، ويعملون السيئات ولا يخافون. فبما نكثوا عهد الله ونقضوا حدود الفرقان، طوّحتْ بهم طوائح الزمان، وخرج من أيديهم كثير من البلدان، وأَنْأَتْهم غفلتُهم عن حقوقهم، وضُربت عليهم خيام أهل الصلبان، نكالاً من الله وأخذًا من الدَيّان. إنهم بارزوا الله بالمعصية، فوَلَّوا الدبر من الكَفَرة. وما أخزاهم عِداهم، ولكن الله أخزاهم، فإنهم عصوا أمام أعين الله فأراهم ما أراهم، وتركهم في آفات وما نجّاهم.

ووزراؤهم قوم مغشوشون، يأكلون أموالهم ولا يخلصون. لا يمنعونهم من التعامي والتصابي، ويُغمضون لهم كالفَطِن المتغابي، وينضحون عنهم كالمداهن المُحابي. وإنهم قِسمانِ: قسم كالعقارب

وقسم كالنسوان، أو نقول بتبديل البيان: قسمٌ كعُمْرٍ جاهل ما أُعطيَ لهم حظ من العرفان، وقسمٌ كذي غِمْر متجاهل لا يريدون إلا هلاك ملوكهم كالشيطان. يرون سلاطينهم يقرُبون حرماتِ الله ومناهيَ الشرع، ثم يندِّدون بأنه من المباحات وليس مما يخالف طريق الورع. ويزيّنون في أعينهم أمرًا هو أقبحُ السيئات، ويريدون أن يجعلوهم كالعجماوات بل الجمادات. ولا يخرج من أفواههم قول يقرب الصدق والصواب، ولا يبغون في أنفسهم إلا الهلاك والتباب. لا يذاكرون ملوكهم بما هو خير لهم في هذه ويوم المكافاة، بل يتركونهم كالسباع المفترسة والحيَوات، ويسعون في كل وقت من الأوقات، أن يَنْبَأَ سمعُهم عن أوامر الله وسننِ خير الكائنات. ولا يخوّفونهم من عواقب الغفلة، ولا يؤثّمونهم عند ارتكاب المعصية. فهل هم بهذه السيرة لهذه الملوك إلا كحُفرة للرِجْلين المتخاذليْن؟ أو كوقود لنار أو كغشاوة على العينين؟ لا يُطفئون أُوارهم، بل يحمدون عثارهم، ولذلك صارت ملوكهم غرضًا لحصائد الألسنة، وسُمُّوا قوما كسالى في الجرائد المغربية، بل أجمعَ أهل الرأي من النصارى، نظرًا على هذه الحالات، على أن أيامهم أيام معدودة

وسيزول أمرهم وإمرتهم في أسرع الأوقات. وإذا هلك سلطان الروم♦ مثلاً فلا سلطان بعده عند هؤلاء الذين رموا أحجار الآراء. واللهُ يعلم ما كتمه وما يفعله رأيٌ في الأرض ورأيٌ في السماء. فمن ذا الذي ينبّه هؤلاء، ومَن يوقظ النائمين ويُخبرهم مِن هذا البلاء؟

ولا شك أن أكثر هذه الملوك أسرفوا على أنفسهم وجاوزا الحدّ في التنعم واللُّهنيّة، وجعلوا نفوسهم رهينة الفسق والكسل والمعصية. لا يزالون يبغون غانية من النساء، ويستقْرون حيلة لوصالها ولو بالفحشاء، ويبذلون بَدْرةً لو نزل البدر من السماء. تفانت قواهم من الفسق والفجور، وذهبت نَضرتُهم ونُضارهم في فكر النسوة والقصور. وترى كثيرا منهم خلتْ صُرّتهم، وسرتْ مسرّتهم، وبُدِّلَ بالخطر خطرتُهم، وضاعت لامرأةٍ إمْرتُهم، وظهر قترُ الفقر بعد ما أُودعَ سرُّ الغنى أسرّتَهم، وحسر بصرهم من الحزن ودامت حسرتهم، ومع ذلك لا يتركون الشهوات، والشهواتُ تتركهم بالشيب والأمراض والآفات. ولا يتّقون شططًا وغلوًّا في استيفاء الحظوظ كالفَجرة، حتى ينجرَّ الأمر إلى تلاشي الصحّة واختلال البِنية، وتزهق أنفسهم وهم يتمنّون أن تعود أيام الصحّة والقوّة.

♦ أي السلطان التركي (الناشر).

كأنهم وقفوا أبدانهم وقواهم على البغايا، وآثروا حبّهن على عصمة النفس والعرض والملّة. إن هؤلاء قوم صاروا للشيطان كفَيْءٍ، وليسوا من الخير في شيءٍ. ترى طبائعَهم كأرض ذات كُسور غيرِ المسحاء، متلوّنة في الصباح والمساء، وترى قلوبهم مظلمة من الكبر والخيلاء، كأنها هزيع من الليلة الليلاء. يفرحون بمرابط مملوّة مِن طِرْفٍ وبِغال، وبقر وجِمال، أو نساء ذات بهاء وحسن وجمال، ولا يتعهّدون فرائضهم ولا يخافون يوم ارتحال، وساعةَ أخذٍ وسؤال. ويُنفِدون يومهم في الزينة والمشط والاكتحال، وما بقي فيهم سيرة من سير الرجال. وإذا رأيتهم بذَأْتَهم وحسبتَهم نساءَ الأسواق، أو عبيدًا زُيّنوا للبيع بعد الاسترقاق. لا يداومون على الصلاة، وصارت أهواؤهم في سبلهم كالصلات، وإنْ صلّوا فيصلّون في البيوت كالنساء، ولا يحضرون المساجدَ كالأتقياء. وكيف وإنهم لا يفارقون كأس الصهباء، ولا يتركون أدناس الندماء، ولا يطيقون أن يسمعوا من الوعظ كلمة، فيأخذهم عزّةٌ كبرًا ونخوة، ويتوغّرون غضبا وغيرة. ويكون أكرمُ الناس عندهم مَن زيّن لهم حالهم، وحمدهم وأعمالهم. وكذلك فسدت أخلاقهم مِن مداومة المُدام، واستأصلتهم شجرةُ الكرْم مع كونهم من أبناء الكرام. ما بقي هِممُهم مِن غير أن يكون لهم قصر منيف، وغذاء لطيف، وشراب حرّيف، وما سُمع

منهم تطريف، ولذلك لَحِقَهم وبالٌ وخسران، وجُزّوا كما يُجَزّ ضانٌ، وقُضّبوا كما تُقضَّب أغصان، وأُخِذوا كما يؤخذ دابّة، وقُطعوا كما يُقطع قضابة، وسقطوا مِن ذرَى دولةٍ وإمارة، كما يسقط ثوب مِن كارةٍ بغرارة.

ولما رأى الله فسقهم وفجورهم، وظلمهم وزورهم، وبطرهم وكفورهم، سلّط عليهم قومًا يتسوّرون جدرانهم، وكلَّ ما علا يتسلّقون، ومما ملَكه آباؤهم يتملّكون، ومِن كل حدَبٍ ينسلون. وكان ذلك أمراً مفعولا وأنتم تقرأونه في القرآن ولكن لا تفكّرون، وقفّى على آثارهم بقسوس فهم يُضلّون الناس ويخدعون، ويرغّبونهم في دينهم الباطل بمال ونساء وبكل ما يزيّنون، فيبيع السفهاءُ دين الله برغفانٍ ونسوان وأماني أخرى كما أنتم تنظرون. والإثم كله على الملوك بما لم يصلحوا أمر رعاياهم وما رأوا مفاسدهم بوَبْلةٍ وكانوا لا يبالون. فقُلّبت أمور دنياهم بما قلّبوا تقوى القلوب، وكانوا على المعاصي يجترئون. وإن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم ولا هم يُرحمون، بل الله يلعن بيوتًا يفسق الناس فيها وبلادا فيها يجترمون، وتنزل الملائكة على دار الفسق والظلم ويقولون: ما عمّركِ الله يا دارُ، وخرَّبك يا جدار، وينزلُ أمرُ الله فيهلكون.

ويُحدِث الله سببًا لهدم تلك الحيطان، وتخريب تلك البلدان، فيأتي قوم فيهُدّونها من أساسها وكذلك يفعلون.

فلا تسبّوا ملوك النصارى ولا تذكروا ما مسَّكم مِن أيديهم ولا تلوموا إلا أنفسكم أيها المعتدون.

أتسمعون ما أقول لكم؟ كلا، بل تعبسون وتشتمون. وأنَّى لكم آذان تسمع وقلوب تفهم، وأين لكم الفراغ أن تَنقلّوا من الأكل إلى العقل، وإلى الدَيّان من الدِنان، وأين فيكم فتيان يتذكّرون؟ أتسبّون أعداءكم وما نالكم إلا جزاءُ ما كنتم تكسبون.

واعلموا أنكم إن كنتم صالحين لأصلحَ الملوك لكم، وكذلك جرت سُنّة الله لقوم يتّقون. وانتهوا من إطراء ملوك الإسلام واستغفِروا لهم إن كنتم تنصحون. ولا تتقدّموا إليهم بموائد فيها سمٌّ فيأكلون ويموتون. وأنتم تعيشون معهم في رخاء وتغترفون من فُضالتهم، فإنْ مسَّهم ضرٌّ فكيف تُعصَمون؟ وإنهم ملكوا رقابكم وأعراضكم وأموالكم، فانصحوا للذين يملكون. وقد جعلهم الله لكم كمُعِدّات، وجعلكم لهم كآلات، فتعاونوا على البر والتقوى إن كنتم تخلصون. ونَبِّهوهم على سيئاتهم، وأَعثِروهم على هفواتهم، إن كنتم لا تنافقون.

ووالله إنهم قوم لا يؤدّون حقوق عباد أُمِّروا عليهم ولا يحافظون الفرائض ولا يتعهّدون. وتعرفونه بوجه أكسَفَ مِن بالهم وزيٍّ أوحشَ من حالهم، كأن بواطنهم مُسخت، وكأنهم أُنشِئوا في ما لا يعلمون. وتالله إنّا نرى أن قلوبهم قاسية بل أشدّ قسوةً من أحجار الجبال، وإنّ طبائعهم متوقدة ولا كالنمور وأفاعي الدِحال، وإنهم قوم لا يتضرّعون. فثبت من هذه الأفعال والأعمال، أنهم أسخطوا ربهم واختاروا طرق الضلال، وأكلوا سمًّا زعافًا ثم أشركوا فيه رعاياهم فلهُمْ سهمانِ من الوبال: يرِدُون جهنم ويُورِدون. وكل ما نزل على الإسلام فهو نزل مِن سوء أعمالهم وفساد الأفعال. فهل فيكم رجل يُفهِّمهم نتائج هذه الخصال، أيها المتكلّمون؟ فإنهم قوم ضيّعوا دينهم للأهواء والأعمال، وصاروا كأحولَ في جميع الأحوال، بل أراهم عُمْيًا لا يبصرون.

ولا أقول لكم أن تخرجوا مِن رِبقتهم وتقصدوا سبيل البغاوة والقتال، بل اطلبوا صلاحهم من الله ذي الجلال لعلهم ينتهون. ولا تتوقّعوا منهم أن يُصلحوا ما أفسدت أيدي الدجّال، أو يقيموا الملّة بعد تهافُتها وبعد ما ظهر من الاختلال، ولكلّ موطنٍ رجال كما تعلمون، وهل يُرجى إحياء الناس من الميّت أو الهداية من الضال، أو المطر من الجَهام، أو الولوج في سَمّ الخياط من الجِمال؟ فكيف منهم

تتوقعون؟ وتالله إنّا لا نتوقّع صلاحهم حتى يوقظهم الاحتضار، ولكن نُدِب إلينا الإذكار، وإنّا لا نحسبهم إلا كطير محلّق لا يُصاد، أو كعُمُرٍ لا يُستعاد، أو كخفافيش خربتْ منها البلاد، أو كبلدة ما أصابها العِهاد، أو كظلٍّ غيرِ ظليل لا تأوي إليه العباد، أو كسمٍّ قُطّعتْ منه الأكباد. عظُمتْ صدمةُ عثرتهم، وما أرى مَن يُقِلُّهم من صرعتهم. تراءَوا كحطب لا كأشجار ذات الثمار، والحطبُ لا يليق إلا للنار. فقدوا قوّة الفراسة، وأصول السياسة، وأرادوا أن يتعلّموا مكائد جيرانهم من النصارى، فما بلغوهم في دقائق الدساسة وحيلِ الحراسة، فمثلهم كمثل دِيكٍ أراد أن يضاهي النسر في الطيران، فزايلَ مركزَه وما بلغ مقام النسر، فخرَّ لاغبًا فلقَفه صقر في الميدان. هذا مثل ملوك الإسلام بمقابلة أهل الصلبان. أعرضوا عمّا عُلّموا من وصايا الاتّقاء، وما كملوا في المكائد كالأعداء، فبقوا لا من هؤلاء ولا من هؤلاء. وقد كتب الله لملوك دينه أن لا ينصرهم أبدًا إلا بعد تقواهم، وأراد للنصارى أن يجعلهم فائزين بمكرهم إذْ أسخط المؤمنون مولاهم. ومن سوء القدر أنّا لا نرى في هذه الأيام ملوكَ الإسلام، قائمين على حدود الله العلاّم، لا في أنفسهم ولا في الأحكام، بل ما بقي فيهم إلا نهمةُ عشرين لونًا من القلايا، وسبعين حسناء من المحصنات أو البغايا، ولا يعلمون ما فصلُ القضايا.

أتحسبون سريرهم حِمى الأمنِ، وما بقي هو إلا كالدِمَن؟ أتظنّون أنهم يحفظون ثغور الإسلام من الكَفرة؟ كلاّ.. بل هم يدعونهم بأيدي الغفلة، ليتملّكوا ما بقي من أطلال الملّة. أتزعمون أنهم كهف الإسلام؟ يا سبحان الله! ما أكبرَ هذا الغلطَ! وإنّما هم يجيحون ببدعاتهم دينَ خير الأنام. ولكم أن تُحسنوا الظن فيهم وتنزّهوهم عن السيئات، ولكن بأي العلامات؟ أتخالون أنهم يحفظون حرم الله وحرم رسوله كالخدّام؟ كلا.. بل الحرم يحفظهم لادّعاء الإسلام وادّعاءِ محبّةِ خير الأنام. وقد حُقّت العقوبة لو لم يتوبوا إلى الله المقتدر العلاّم. فمَن فيكم يذكّرهم بأيام الله ويخوّفهم من سوء الأيام؟ ألا ترون أن الإسلام قد تكسّرَ مِن دهرٍ هاض، وجَورٍ فاض، وأن الفتن مطرت عليه ولا كمطر الوابل، وقام لصيده أفواج العِدا كالحابل، وما بقي شيء تسرّ القلوب، وتدرأ الكروب، وظهر المسلمون كعَطاشى في فلوات، وكمثلِ مرضى عند سكرات، وما بقي فيهم إلا رمقُ حياة، أو قطرة من فرات، أو قشرة من ثمرات. وإنهم قد ابتُلوا بأنواع أمراض، وأقسام أعراض، وفسد ما ظهر وما بطن، ووهن مَن جهل ومَن فطن، وتعامى من تغرّبَ ومن قطن، وغابت الأيام الغُرّ، ونابت الأحداث الغُبْر، وغُيّر الدين وقرُب إلى تلفٍ، وصار بحره كجلف، وآثرَ الناسُ على الصدق الأراجيفَ،

وعلى القصر المنيف من الحق الكنيفَ، ولما ضلوا ما بقي معهم دنياهم وآنسوا التكاليف، وودّعوا مع توديع الصرف والعدل الذهبَ والصريفَ، وهذا أمر لا يخفى على ابن الأيام، والمطّلعِ على نار تضرمتْ في الخواص والعوام. فاليوم ليالي المسلمين مُحاق، وعليها من النظّارة أطواق، ومِن الزحام أطباق، فقوم يمرّون على المسلمين ضاحكين، وآخرون ينظرون إليهم باكين. وترون أن القلوب قست، والذنوب كثرت، والصدور ضاقت، والعقول تكدّرت، وعمّت الغفلةُ والكسل والعصيان، وغلبت الجهالة والضلالة والطغيان، وما بقي التقوى وخطَفه الشيطان، ولم يبق في القلوب نور يقوى منه الإيمان، ونَجَسَ الأبصارُ والألسن والآذان، وفسُدت الاعتقادات، وسُلبت الدرايات، وظهرت الجهلات والعمايات، ودخل الرياء في العبادة، والخيلاء في الزهادة، وظهرت الشقاوة، وانتفت آثار السعادة، ولم يبق التحابب والاتفاق، وظهر التباغض والشقاق. وما بقي ذنب ولا جهالة إلا وهو موجود في المسلمين، ولا ضيم ولا ضلالة إلا وهو يوجد في نسائهم والرجال والبنين، سيّما أمراؤهم تركوا الصراط أو قعدوا أو مشوا كالذي عَرَجَ، وترى بعضهم أظلمَ ممّن دبَّ ودرَجَ، وعُرِضَ عليهم أمر الله فسكتوا كأخرسَ، وصاروا أوّل من كفر بالحق وتدلّسَ. ولذلك أُخِذَ الناسُ بالطاعون

والعجماوات بالموتان، وظهرت الآيات فما قبلوها فنزل سخط الرحمان. ولما رأوا العذاب قالوا إنّا تطيّرْنا بك وبكذبِك جاء الطاعون. قيل طائرُكم معكم أئنْ ذُكّرتم بل أنتم قوم مسرفون. وما أرسل الله من رسول إلا وأُرسلَ معه عذاب من السماء والأرض لعلهم يرجعون. وكذلك كان النَغَفُ في زمن المسيح عذابا مؤقتا، وإنّ في ذلك لآية لقوم يتدبّرون.

ألا ينظرون كيف حفظ الله هذه القرية، وصدّق وعده وجعلها أرضا آمنة، ويؤخذ الناس من حولها، إن في ذلك لآية لقوم يتفكّرون. ألا ينظرون كيف أرى الطواعينُ نواجذها في قُرًى أخرى، وأوى الله إليه هذه القريةَ ليتمّ وعدًا أُشيعَ مِن قبل في الورى، ومَن أصدقُ من الله قيلا؟ ففكّرْ إن كنتَ بالتقوى تتحلّى. ووالله إنها آية عظمى لأناس يُبصرون، فاسألوا الذين رأوها ويرونها إن كنتم لا تعلمون. ولا تتّبعوا شياطينكم وتوبوا إلى الله أيها المكذّبون. ألا تتنبّهون وقد صُبّت المصائب عليكم وعلى ملوككم أيها المعتدون؟ وظهر الإدبار، وما بقي لهم العيش النضير ولا النُضار. وترى أكثرَهم باديَ المتربة كماء يغور أو كرجل يُغار. ثم صالت عليهم طوائف القسوس، في اليوم المنحوس، فدخل كثير من الناس في الملّة النصرانية، وصاروا أعداءَ الله وأعداءَ رسوله خيرِ البريّة. فأرُوني أيّ

مِلكٍ من ملوككم صنع فُلْكًا عند هذه الطوفان؟ بل أُغرقوا مع المغرَقين، وقلَّم أظفارَهم مقراضُ الزمان، ورهَق وجوهَهم القترُ، وانتزف ماءَهم الدهرُ، وفارقَهم الإقبال، واحتالوا فما نفعهم الاحتيال، وظهرت فتن ما كانوا أن يُصلحوها بالشورى والمنتدى، ولا بتجمير البعوث على ثغور العِدا، وربما تقلّدوا أسلحة، وبعثوا جنودًا مجنّدة، فما كان مآلهم إلا الخزي والهزيمة، والهوان والذلة العظيمة. وما نفع وجودُهم الشريعةَ الغرّاء، بل تدثّرَ الإسلامُ ظالعًا ذا عدواء، في أرضٍ متعاديةٍ مَواتٍ مَرْداءَ، بما كان الملوك في سجن الأهواء كالمحبوس، وعَبَدةَ نار الشهوات كالمجوس. ومَن كان راتعًا في الأجمة الشيطانية، ما له وللرياض الرحمانية؟ فأرى الدينَ في زمنهم كمثل جسمٍ ثارت به من الداخل حصبةٌ ودماميلُ وأنواع البثرات، وجرَحه من الخارج كثير من المُدى والقنا والمرهفات، وأُجْبِئَ زرعُه المخصبُ، وأُحرِق عذيقه المرجّب، وكان في زمان كحديقة ترتع النواظر في نواضرها، ويُصقَل الخواطرُ بشيمِ مواطرها، وأمّا اليوم فهو كشجرة اتخذت الخفافيشُ أوكارَها في أظلالها، وكعين ما بقيتْ قطرة من زلالها، واشمعلّت للرحل كلُّ شوكة وبركة كانت في هذا الدين، وما بقي إلا قصص من الآيات وقشرة من الكتاب المبين،

وتراه كدارٍ مات صاحبها، وقامت نوادبها، وهُدم جدرانها، وزُلزل بنيانها.

فانظروا ماذا ترون طرق المداواة يا طوائف الأُساة؟ أتجدون هؤلاء الأمراء، يدفعون تلك البلاء؟ أتتوقّعون من هذه الملوك، أنهم يطهّرون حديقة الدين من تلك الشوك؟ أو تزعمون أن هذه الأمراض تُبرَأُ مِن الدول الإسلامية وبجهدهم المعلوم؟ كلا، بل هو أمرٌ أعسرُ مِن أن تتوقعوا الرطب الجنيّ من الزقّوم، وكيف وهم في غشية الوجوم؟ وكيف يرفعون رأسهم وهم تحت ألوف من الهموم؟ والحق والحق أقول.. إن هذه آفاتٌ ليس دفعُها في وسع الملوك والأمراء. أيهدي الأعمى أعمى آخر يا ذوي الدهاء؟

ثم إن هذه الملوك، وإنْ كانوا من المسلمين، أو من المخلصين المواسين، ولكن ليست نفوسهم كنفوس الكاملين المطهَّرين، وما أُعطيَ لهم نورٌ وجذبٌ كالمقدَّسين، فإن النور لا ينزل قط من السماء إلا على قلب أُحرِقَ بنيران الفناء، ثم أُعْطيَ مِن حبّ شغفه وغُسِلَ مِن عين الرضاء، وكُحِّلَ بكحل البصيرة والصدق والصفاء، ثم كُسِيَ مِن حُلل الاجتباء والاصطفاء، ثم وُهِبَ له مقام البقاء. وكيف يُزيل الظلمة مَن هو قاعد في الظلمات؟ وكيف يوقِظ مَن هو نائم على أرائك اللذّات؟ والحق أن ملوك هذا الزمان ليست لهم

مناسبةٌ بالأمور الروحانية، وقد صرَف الله هِممهم إلى السياسات الجسمانية، ونصبهم بمصلحة من عنده لحماية قشرة الملّة، وقيّد لحظهم بالأمور السياسية، فما لهم ولِلُّبِّ والحقيقة. وليست فرائضهم أزيدَ من أن يحسنوا الانتظام لحفظ ثغور الإسلام، ويتعهدوا ظواهرَ المُلك ويعصموه من براثن الأعداء اللئام، وأمّا بواطن الناس، وتطهيرها من الأدناس، وتنجية الخلق من شر الوسواس الخنّاس، وحفظُهم من الآفات بعقد الهمّة والدعوات، فهذا أمرٌ أرفعُ من طاقة الملوك وهِممهم كما لا يخفى على ذوي الحصاة. وما فُوّضَ زمام المُلك إلى أيدي السلاطين، إلا لحفظ الصور الإسلامية من بطش الشياطين، لا لتزكية النفوس وتنوير العمين. فما كان مبلغ جهدهم إلا أن تدفع إليهم الخراج بالجبر أو التراضي، ويُرتَّب الديوان الذي تُحصى فيه مقادير الأراضي، وأن تُهيَّأ جنود بحذةِ عساكر الأعداء، وأن ينصَّب فوج للسياسات الداخلية وفصلِ الأحكام والقضاء والإمضاء. فإنْ تطلبوا منهم خدمةَ إصلاح النفوس، وتهذيبِ الأخلاق والتنجية من أوهام القسوس، فذلك أمر أرفعُ مِن هممهم ودهائهم، ومنارٌ أسنى مِن بنائهم، بل هم قوم مشتغلون بالإصلاح المادّي والسياسي، فما لهم وللإصلاح العلمي والعَملي؟

فحاصل الكلام أن الملوك والأمراء لا يقدرون على أن يزيلوا الأهواء، وكيف يهدون غيرَهم وهم يمشون كناقةٍ عشواء، وكيف يُتَوقَّع مِن قلب زائغ أن يقوّم نفسًا ذاتَ عَدْواء، وأن يُسعِد الأشقياء، وأن يأخذ بيد المتخاذلين ويقود الضعفاء، وأن يفتح عيون العمين، وأن يرفع حُجب المحجوبين؟ بل ملوك الإسلام في هذه الأيام كالسكارى أو الأسارى، أو القمر المنخسف بين هالة النصارى، فكيف يصدر من عضدهم فعلُ مَن بارزَ وبارى؟ بل هم قعدوا في البيوت كالعذارى.

ثم من معائب هذه الملوك أنهم لا يشيعون العربية، ويشيعون التركية أو الفارسية، وكان من الواجب أن يُشاع هذه اللسان في البلاد الإسلامية، فإنه لسان الله ولسان رسوله ولسان الصحف المطهَّرة. ولا ننظر بنظر التعظيم إلى قوم لا يُكرِمون هذا اللسان، ولا يشيعونها في بلادهم ليرجموا الشيطان. وهذا مِن أوّل أسباب اختلالهم، وأماراتِ وبالهم، فإنهم تمايلوا على دِمْنةٍ مِن حديقة مطهّرة، ونبذوا من أيديهم حريرتَهم، ومزّقوا عَيبتهم، واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو أرفع وأعلى، وشابهوا قومَ موسى. ولو أرادوا لجعلوا العربية لسان القوم، ولو سلكوا هذا المسلك لعُصموا من اللوم، فإن العربية أُمُّ الألسنة، وفيها أصناف العجائب وودائع

القدرة. فمَثلُ رجلٍ مسلم يترك العربية ويفضّل عليها ألسنة أخرى، كمثلِ دنيءٍ يتمشش الخنـــزير ويترك طعاما هو أطيب وأحلى. فلا شك أن التركية والفارسية تصدّتْ لهم كطـــرّار نقـــصتْ دينـــهم وخلست مالهم، أو كذئب افترستْ عنقَهم ومزّقت إقبالهم، وأضرّت دنياهم ومآلَهم، وجعلهم كالكحل سحقًا، وكالطحن دقًّـــا، ومـــا نقول إلا حقًّا. فقد كذَب مَن ذكَرهم بحمدٍ وفّاه، وبنشرٍ ملأ به فاه، وحسِبهم خلفاءَ الله على الأرض وفسّق مَن أنكر دعواه. إنه يرتـــاد جفنة الجواد، لا خليفة البلاد، ويستقْري أن يرشح له ويسحّ عليـــه بكلمتيه، ويحرز العين بغَضِّ عينيه. فالحق أن نسبة الخلافـــة إلـــيهم خلاف، وكذب واعتساف.

هذا حال السلاطين● أيها الفتيان، ونذكر بعد ذلك علماء هـــذا الزمان، الذين يُعزَى إليهم الفضل والعرفـــان، والله المـــستعان، ولا حاجة إلى الترجمة والترجمان، فإنّهم يدّعون علم اللسان.

● ليس مرادنا ههنا مِن ذكر ملوك الإسلام أن كلهم ظالمون، أو كلهم مفسدون، بل بعضهم صالحون، لا يظلمون الناس ويرحمون، كما هو سلطان الروم، ونثني عليه لبعض خليقته المعلوم. بيد أن أمر الخلافة أمرٌ عسير، ولا يُعطى إلا لبصير لا لضرير، وما أُعطيَ هذا السهم لكل كنانة، وإنْ كانوا ذا مرتبة ومكانة. منه.